أمستردام

أكثر من مدينة "عصر ذهبي" غابر

> أرمين غيمر

إن ما في أمستردام من حيوية الشباب، وبهرجة، وليبرالية وتعددية ثقافية ما لا تتمتع به مدينة أخرى في أوروبا. وهي عاصمة هولندا، وتعتبر "بندقية" الشمال، وواحدة من أجمل المدن الأوروبية. ويحب السياح الجلوس في مقاهي الشوارع لإلقاء نظرة على قنوات المياه العديدة الضيقة. أمستردام الحديثة هي اليوم من أهم المدن التجارية في جميع أنحاء العالم. وتعتبر أيضا الأكثر تحررا وعالمية (كوزموبوليتية) في أوروبا. ومنازل المدينة الأنيقة ونظام قنوات الري هما شهادة على ثراء الأسر التجارية الكبيرة التي سكنت أمستردام. ولكن من أين جاء كل هذا الجمال وهذه الثروات؟

أمستردام هي عاصمة أمة صغيرة، وهي تظهر فقط في الخلفية الموسيقية للأوركسترا الكبيرة للبلدان الأوروبية العريقة في التاريخ. لقد بنيت المدينة في وسط مستنقع لا يمكن السكن فيه وهو في الحقيقة ليس المكان المثالي لتأسيس مدينة. وهي ليست قديمة قدم غيرها من المدن الأوروبية، بالمقارنة مع لندن، أو باريس أو مدريد، هي على طراز واحد. وحتى في هولندا نفسها، فليست

محطة القطار في أمستردام
Amsterdam railway station

محطة القطار في أمستردام
Amsterdam railway station

بيت تقليدي من العصر الذهبي

Traditional building of the Golden Age

أمستردام، وإنما روتردام، هي أكبر ميناء بكل تأكيد ولا نظير له في العالم. وأيضاً، إن أهم المؤسسات في أوروبا الحديثة، والتي تستضيفها هولندا، ليست في العاصمة، ولكن في المدينة المجاورة لاهاي. وأخيرا، فإن "العصر الذهبي" الشهير الذي يود الهولنديون أن يتذكروه استمر فقط لمدة مائة سنة.

ومع ذلك، فإن أمستردام هي مدينة لها موقف خاص من الحياة والهندسة المعمارية لا تضاهيها في ذلك أي مدينة أخرى. لقد أنتجت أعدادا لا تحصى من الفنانين والفلاسفة والعلماء. وهذا التفرد يجعلها مقصدا مرغوبا للسياح. والملايين من السياح يحبون المدينة أولا وقبل كل شيء لما يجدونه من رومانسية حضرية في قنواتها والتي تمتد إلى جوارها نوافذ المحلات التي لا نهاية لها ولا يمل المرء من التأمل فيها وكذلك يعجبون بالمنازل القديمة. يسمي الهولنديون القنوات الصغيرة الكثيرة التي تقطع المدينة "كراختين". وبدلا من الحديث عن أمستردام كمدينة، يمكن للمرء أن يتكلم عنها بأمان باعتبارها مجموعة من 90 جزيرة مربوطة بأكثر من 1281 جسرا.

تستمد العاصمة الهولندية إسمها من كلمة "السد على نهر أمستل". ففي سنة 1300، عند النقطة التي تصل فيها تعرجات النهر إلى البحر، أسست أول مستوطنة للصيادين. ولكن مع التحسن في صناعة بناء السفن وتزايد أهمية التجارة البحرية الدولية، فإن الموقع الاستراتيجي للمستوطنة مكّن الصيادين من أن يصبحوا تجّارا ناجحين. وبعد فترة وجيزة، توسع الإستيطان في المدينة وبدأت تجذب المزيد والمزيد من الناس. وبعد 200 سنة أصبح هذا المجال الضيق صغيرا جدا فتم وضع أولى الخطط للتوسع واستحداث "البرنسينكراخت" و"الهيرينكراخت" و"القيصركراخت". وشكلت هذه التوسعة الدوائر الثلاث الأولى من حزام القناة الشهير.

نموذج مطابق للسفينة أمستردام

Replica of the famous ship Amsterdam

وكان المقصود في أول الأمر أن تكون الخنادق بمثابة تحصينات وقنوات لتصريف المياه من الأراضي المستردة حديثا من المستنقعات. ومع ذلك، فإن السكان سرعان ما أدركوا أن قنوات المياه الجديدة تنطوي على ميزة أخرى. فحزام القنوات حول المدينة كان وسيلة مثالية لنقل البضائع. ومنذ 1670 أصبحت القنوات الرئيسية الثلاث نظاما من الممرات المائية ربطت به 10 قنوات إضافية. وبواسطة هذا النظام الفريد أصبح من المؤكد أن كل منزل في المدينة يتصل مباشرة من واجهتيه الأمامية والخلفية بالقنوات. ولذلك فإن المنازل يمكن أن تستخدم كمخازن، وهي ميزة كبرى بالنسبة للتجار الطموحين. ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا قادرين على تخزين السلع التي أرسلت على متن السفن إلى كل جزء من أجزاء العالم في منازلهم. ومن الممكن حتى اليوم أن ترى على المنازل التي كانت تستخدم للعيش وللتخزين، الرافعات المعلقة على عواميد السقف.

ومع منفذ مباشر على البحر، فإن المدينة لم تكن مكانا يعيش فيه الناس ولكنها أيضاً متاهة لا تعد من البيوت التجارية الصغيرة. وكان ذلك ميزة لا يماثلها شئ في المدن الهانزية المنافسة والتي أصبح بالإمكان الآن الإجتار معها على قدم المساواة. وبسبب هذا الموقع الاستراتيجي أصبحت المدينة واسطة تربط الموانئ الأوروبية الهامة والبر الرئيسي والذي يمتد إلى أبعد من هولندا المعروفة اليوم. وفي العصر الذي ما زال الهولنديون يطلقون عليه إسم "العصر الذهبي" فإن هؤلاء التجار البحريين تجنبوا المشاركة في أي حرب واسعة النطاق وعملوا على زيادة ثرواتهم عن طريق شبكة فريدة من العلاقات التجارية الجيدة. لقد تركو الآخرين ليخوضوا الحروب. وفي حين أن الدول الأخرى انشغلت بحروب لا نهاية لها فقد ركز الهولنديون على الحياد والتجارة. ومكنهم هذا من الوصول إلى موانئ كان يتعذر على غيرهم من أمم التجارة البحرية الوصول إليها. وخلال حروب عصر الإصلاح التي اجتاحت أوروبا، عندما كان البروتستانت والكاثوليك يذبحون بعضهم بعضاً، فقد وفرت أمستردام ملاذا للاجئين من كل الأديان والأمم. وعن طريق ذلك اكتسبت علاقات تجارية جديدة، ومهارات حرفية وابتكارات في جميع قطاعات الحياة.

وشهدت المدينة انفجارا سكانيا فتوسعت حدودها، وبنيت أحياء جديدة فيها ولكنها أصبحت بدورها مكتظة بسرعة بسبب التدفق البشري المستمر عليها. وتمدد نظام القنوات جنبا إلى جنب مع نمو المدينة. وفي وقت قصير جدا نمت أمستردام لتكون ثالث أكبر مدينة أوروبية، وأصبحت مركزا للفن والثقافة والفلسفة والعلوم الطبيعية. وأصبح السكان لا يعرفون ما ينبغي عمله بثرواتهم الطائلة.

ومع ذلك، فإن بناء سدود المياه ما بين القنوات

بيت تقليدي من العصر الذهبي

Traditional house of the Golden Age

منطقة المشاة في لايدزستارت

Leidsestraat pedestrian zone

كانت له إنعكاساته السلبية الكبيرة. فمنذ البداية كانت الأراضي المخصصة لبناء المنازل محدودة في مساحتها. وخلافاً لما كان في غيرها من المدن، فإن سكان أمستردام لم يتباهوا بعرض ثرواتهم ومكانتهم الاجتماعية من خلال حجم البيوت أو الحدائق الرائعة ولكن ببساطة من خلال تزيين واجهات المنازل الضيقة. كما يمكن مشاهدته من رصيف الميناء. ولكن على أية حال فإن الخبراء فقط بإمكانهم معرفة التمايزات في الزينة. البيوت الصغيرة بجوار القنوات ليست مبهرجة، ولكنها تتمتع بجمال غير بارز. وخلافا لما حدث في العديد من المدن الأخرى، فإن هذا لا يزال قائما اليوم، لأن معظم هذه المنازل التاريخية نجت من الحرق والنهب والتدمير أو من التجديد الذي لا لزوم له. وهي اليوم ما زالت تحتفظ بطابع "العصر الذهبي". ومع حلول السلام بين إنكلترا وفرنسا فإن هذا "العصر الذهبي" الوحيد في تاريخ هولندا وصل فجأة إلى نهايته. فقد كسبت إنكلترا السيادة على البحار. وبعد فترة وجيزة من احتلال نابليون لأراضي الأمم المجاورة، وفي مؤتمر فيينا، فقد كانت مدينة العصر الذهبي السابق مجرد ورقة تفاوض. وفقط الروائع الفنية في المتاحف وواجهات المنازل الرائعة على طول القنوات التي احتفظت بعظمتها الأصلية تذكرنا بهذا العصر الذهبي.

ولكن هل هذا هو كل ما بقي من هذه الفترة الزمنية؟ اليوم فإن هذه المدينة أصبحت رمزا للتسامح والحرية الدينية وموطنا للمهاجرين من 145 قومية وهم يمثلون جميع الأديان في العالم. والعديد من المهاجرين الأجانب والمواطنين الهولنديين الأصليين الذين اختاروا العيش في أمستردام جعلوها، إلى حد بعيد، المدينة الأوروبية التي يسكنها الشباب. وقد أوجد هذا بدوره تنوعاً فنياً، وثقافيا وفكريا. كما أن المهارات التجارية التقليدية ما تزال، كما يبدو، على قيد الحياة.

6 % من سكان أمستردام هم من المسلمين. أحمد المغربي، رئيس الحي الذي يسمى "سلوترفارت"، هو أول مسلم ينتخب لمنصب العمدة في أوروبا. ختاماً، فإن أمستردام تتمتع بشباب، وبهرجة، وليبرالية وتعددية ثقافية لا نظير لها في أي مدينة أخرى في أوروبا. ■

View through the bridge of the Keizersgracht

منظر من خلال جسر قيصركراخت

View from the Keizersgracht

قيصركراخت